الفصل الأول

الفتح الإسلامى لمصر

معرفة العرب بها :

كان العرب يعرفون مصر من قديم الزمان ويتبادلون معها التجارة ، وكانت جيوش المصريين تجتاح شمال الجزيرة العربية فى حروبها المتعددة فى الشام وما وراءها فتعلم شيئاً عن هذه البلاد وأهلها وتعود منها بأسرى ، وكانت بعض الأمم الأسيوية تغزو مصر ، وتمر فى طريقها بهذه البلاد ، وتستعين بأبنائها فى غزواتها لمصر ، ومن هؤلاء أمة الفرس التى غزت مصر فى عهد قمبيز سنة ٥٢٥ ق . م ، وفى أواخر الدولة الرومانية سنة ٦١٧ م . وقد يستقر بها بعض هؤلاء العرب الذين يجيئون أسرى أو مع الغزاة ، وقد يرجعون إلى قومهم فيحدثونهم بما رأوا وما علموا عن مصر ، ومن المؤرخين من يجعل ملوك الهكسوس (الرعاة) عربا ، وقد حكموا البلاد زمناً قبل الميلاد بخمسة عشر قرنا ، بل إن زنوبيا ملكة تدمر قد غزت هذه البلاد سنة ٢٦٨ م وقاومها الرومان ، ولكنها هزمتهم ، وحكمت البلاد عامين ثم أخرجوها منها .

وصلة النسب بين مصر والعرب موجودة من قديم ؛ فقد تزوج إبراهيم الخليل عليه السلام هاجر ، فولدت له إسماعيل عليه السلام ، وذهب بها إلى الحجاز فأسكنها[1] هى وابنها بواد غير ذى زرع ، ودعا الله أن يجعل أفئدة من الناس

---

(١) النجوم الزاهرة ص ٢٣ ، ص ٢٩ .

تهوى إليهم . فاستجاب الله دعاءه وبارك فى ذريته ، وكانت العرب المستعربة من نسل إسماعيل عليه السلام .

والقرآن الكريم قص على العرب شيئا من تاريخ مصر ، فى قصة يوسف وفى قصة موسى عليهما السلام ، فعرفوا فى عهد الرسول بعض تاريخها القديم من مصدر سماوى . وعرفوا أن التجارة كانت متصلة بين الشام ومصر فى عهد يوسف عليه السلام كما كانت فى غيره من العهود ، وأن السيارة وجدته فأسرُّوه بضاعة ، وشروه بثمن بَخْس دراهم معدودة ، وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه ، وعرفوا أن « فرعونَ علا فى الأرض وجعلَ أهلها شِيَعاً » و « استكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق » ، « ونادى فرعونُ فى قومه قال : يا قوم أليس لى مُلْكُ مصرَ وهذه الأنهار تجرى من تحتى » ، إلى غير ذلك من الأخبار التى حدثهم بها القرآن الكريم .

وكانوا يستوردون القباطى من مصر قبيل الإسلام وهى ثياب رقيقة من الكتان تنسب إلى قبط مصر ، وقيل إنهم كتبوا عليها المعلقات[1] .

وأشهر ما كان من اتصال فى مبدأ الإسلام : أن النبى صلى الله عليه وسلم أرسل إلى المقوقس ، عظيم القبط فى مصر ، كتاباً مع حاطب بن أبى بلتعه سنة ست من الهجرة ، وهو :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القِبْط : سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد . فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسْلِمْ تَسْلَم يؤتك اللهُ أجرَك مرّتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم القبط ، يا أهل الكتاب تعالَوْا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبدَ إلا اللهَ ولا نشركَ به شيئا ولا يتخذَ بعضُنا بعضاً أرباباً من دون الله . فإن تولّوْا فقولوا اشْهَدوا بأنا مسلمون» .

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية جـ ١ ص ٩١ .

ولم يسلم المقوقس ، ولكنه رد على النبي صلى الله عليه وسلم يقول[١] :

« أما بعد فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه ، وقد علمت أن نبيًّا بقي ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رُسُلك ، وبعثت إليك بجاريتين لهما مقام فى القبط عظيم ، وبكسوة ، وأهديت إليك بغلة لتركبها ، والسلام » .

وكانت إحدى الجاريتين مارية القبطية ، التى تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم وولدت له ابنه إبراهيم عليه السلام ، وماتت[٢] سنة ٦٣٣ م فلم تشهد فتح العرب لمصر .

وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم تنبأ بفتح العرب لمصر وأوصى الفاتحين بأهلها خيراً ، فإن لهم ذمة ورحما .

وهناك قصة رواها الكندى[٣] والمقريزى عن قدوم عمرو بن العاص إلى مصر فى الجاهلية ، واشتراكه فى حفل سنوى خاص بأولاد الذوات ، ووقعت فى حجره كرة مخصوصة ، وكان من وقعت فى حجره يحكم البلاد يوماً من الأيام ، وسوف نذكرها عند الكلام على القصص .

وهذه القصة الأدبية الطريفة لها دلالتها على وجود الصلة بين العرب ومصر . وهى صلة طبيعية كانت تسمح بها — أو تفرضها — ظروف الجوار ، وشهرة مصر فيما جاورها من البلاد بالخصب والثروة والحبوب والصناعة . فلما فتح الله للمسلمين بيت المقدس فكر عمرو بن العاص فى فتح مصر . كى ترفرف عليها راية الإسلام ، كما رفرفت من قبل فى الشام .

---

(١) صبح الأعشى ج ٦ ص ٤٦٧ — وهناك صورة أخرى للرد فى الصفحة نفسها يظهر المقوقس فيها حسن استعداده للايمان ، وحسن ظنه بالرسول .

(٢) فتح العرب لمصر ص ١٢٦ عن حسن المحاضرة ج ١ ص ٤٣ .

(٣) الولاة ص ٦ وفى خطط المقريزى ج ١ ص ١٥٨ .

مسير عمرو إليها :

يحدثنا المؤرخون أن عمرو بن العاص كان صاحب الفكرة فى فتح مصر لسابق معرفته بها ، وأنه قد وصفها لأمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ، وحدثه عن ثروتها وسهولة غزوها . وأن عمر وافق على ذلك[1] ، وأرسله فى أربعة آلاف مقاتل ، وقال له : « سيأتيك كتابى سريعاً إن شاء الله تعالى ؛ فإن أنت أدركك كتابى آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها فانصرف ، وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فامض لوجهك ، واستعن بالله ، واستنصره[2] » .

وسار عمرو ففتح البلاد . واختلف المؤرخون فى سنة دخوله ، وفى كتاب عمر إليه وفى عدد رجاله ، ولكنهم لم يختلفوا فى أنه منفذ تلك الفكرة الجريئة ، وأن الله قد نصر فئته القليلة ، وأيده فى خطواته ، وكانت محفوفة بالأخطار .

دخل عمرو مصر فى أواخر سنة ١٨ هـ ، فسار على بركة الله ، وقاومه الروم فى الفرما وبلبيس وأم دنين (عند عين شمس) ، ثم حاصر حصن بابليون ، وأرسل إلى عمر يستمده وخرج إلى الفيوم فلم يفلح فى الاستيلاء عليها ، ثم رجع فوجد المدد بقيادة الزبير بن العوام ، فاستطاع أن يحاصر بابليون حصاراً شديداً حتى سلم الحصن ، ثم تقدم إلى الإسكندرية ، وفتح فى طريقه إليها عدداً من القرى والمدن ، ثم وصل إليها ففتحها بعد حصار شديد سنة ٢١ هـ .

---

(١) فى الولاة والقضاة للكندى ص ٨ أن عمرو بن العاص تقدم بأصحابه إلى مصر بغير إذن ، فكتب إليه عمر بن الخطاب : « من عمر بن الخطاب إلى العاصى ابن العاصى : أما بعد فانه بلغنى أنك سرت ومن معك إلى مصر وبها جموع الروم ، وإنما معك نفر يسير . ولعمرى لو كان ثكل أمك ماتقدمت ، فإذا جاءك كتابى هذا فإن لم تكن بلغت مصر فارجع » . فحمد عمرو ربه لأنه كان جاوز الحدود وصار فى مصر .

(٢) حسن المحاضرة ١/ ٤٦ خطط المقريزى ١ : ٢٨٨ .

وكان فى تسليم بابليون والاسكندرية أكبر مشجع للعرب على فتح بقية البلاد ؛ وظلت تابعة للخلافة مدة قرنين ونصف من الزمان كانت متأثرة فيها بالحجاز أو الشام أو العراق ، ثم استقل بها أحمد بن طولون وبنوه زمنا (٢٥٤—٢٩٢ هـ) فكانت لها شخصية شبه مستقلة فى عهد الطولونيين ، ولكنها عادت إلى العباسيين . ثم استقل بها الأخشيديون سنة ٣٢٨ هـ حتى سنة ٣٥٨ هـ . ثم قامت بها خلافة فاطمية تنافس خلافة العباسيين ، وحاضرة تداني بغداد ثم ترثها . وصارت لها مقوماتها السياسية والأدبية والدينية .

عوامل انتشار اللغة العربية فى مصر :

تأثر لسان العرب فى مصر بأمرين ساعدا على نشره ، وتعلم الناس له ؛ هذان الأمران هما : الإسلام ، وهجرة القبائل العربية إليها .

أما الأمر الأول وهو الإسلام ، فكان الغاية الأولى من فتح عمرو بن العاص لها ، وكان المسلمون يدعون إلى الإسلام إذا ذهبوا لفتح بلد ، فإذا أبى أهل البلد قبلوا منهم الجزية ، فإذا أبوا قاتلوهم حتى يعطوها ؛ وكذلك كان حالهم فى مصر . فأسلم كثير ؛ لما فى ذلك من مزايا ، كالمساواة فى الإسلام والإعفاء من الجزية ، وما تحمله من معنى الخضوع والحماية .

« وليس من العدل أن يقول قائل إن كل من أسلم منهم إنما كان يقصد الدنيا وزينتها ، فإنه مما لاشك فيه أن كثيراً منهم أسلم لما كان يطمع فيه من مساواة بالمسلمين الفاتحين ، حتى يكون له مالهم ، وينجو من دفع الجزية ؛ ولكن هذه المطامع ما كانت لتدفع إلا من كانت عقائدهم غير راسية ، وأما الحقيقة المرة فهى أن كثيرين من أهل الرأى والحصافة قد كرهوا المسيحية لما كان منها من عصيان لصاحبها ؛ إذ عصت ما أمر به المسيح من حب ورجاء فى الله ... ومنذ بدا ذلك

لهؤلاء العقلاء لجئوا إلى الإسلام فاعتصموا بأمنه ، واستظلوا بوداعته وطمأنينته وبساطته[١] » .

وكان دخول الناس فى الإسلام مبكرا ، وكان منهم الروم والقبط وقد أسلم « بعض عظماء الروم الملكانيين مثل « ميناس » حاكم مصر السفلى ، و « شنوده » حاكم الريف ، و « فيلوخينوس » حاكم أركاديا (الفيوم)[٢] .

ومن أقدم من دخل فى الإسلام جماعة من القبط ، أخذوا بعد صلح بابليون « يختارون الإسلام ، ويفضلون الدخول فيه على دفع الجزية ؛ فقد رأى هؤلاء أن الإسلام يجعل لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين ، ويساويهم بالفاتحين فى شرف محلهم ، ويجعلهم إخوانهم فى كل شىء ، ويسهم لهم فى الفيء ، ولا يفرض عليهم الجزاء ، فكان فى ذلك باعث قوى لكثير منهم على الدخول فى الإسلام ، لا سيما وقد طحن المقوقس عقيدتهم طحنا ، وحطم يقينهم باضطهاده . وكذلك دخل فى الإسلام كثير من الروم ، بعضهم جنود وبعضهم ممن حل فى مصر ... وكان هؤلاء المسلمة يتظاهرون بأنهم من أشد الناس فى أمر الدين ، فيدفعهم ذلك إلى مساعدة إخوانهم العرب المسلمين على استصفاء أموال المسيحيين الذين أخرجتهم الحرب من ديارهم ، وصاروا يستبيحون لهم ، ويصفونهم بأنهم أعداء الله[٣] » .

وأسلم طائفة كبيرة من الأسرى عند مدينة بلهيب ، وقد جاء إلى عمرو وهو يحاصرها رد من الخليفة عمر بإقرار صلح الإسكندرية ، فقرأ عمرو كتاب الخليفة على الناس . وقد جاء فيه أن يخير الأسرى ، فمن رضى الدخول فى الإسلام منهم أطلق سراحه ، وصار للمسلمين أخا[٤] .

وقيل إن عمر بن عبد العزيز كان له وال على مصر كتب إليه يقول : إن

---

(١) فتح العرب لمصر ص ٣١٤ (٢) ص ٣٨٤

(٣) ص ٢٤٣ (٤) ص ٣٠٣

الإسلام أضر بالجزية حتى نقد نقص عشرون ألف دينار من عطاء أهل الديوان . فكتب إليه عمر بن عبد العزيز كتابا شديدا قال فيه[١] :

« أما بعد فقد بلغنى كتابك . فقد وليتك جند مصر وأنا عارف بضعفك ، وقد أمرت رسولى أن يضرب على رأسك عشرين سوطا ، فضع الجزية عمن أسلم ، قبح الله رأيك . فإن الله إنما بعث محمداً صلى الله عليه وسلم هاديا ، ولم يبعثه جابيا ، ولعمرى لعُمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم الإسلام على يديه » .

ويستدل بتلر[٢] على كثرة من أسلم بتناقص الجزية ، لأنها كانت فى عهد عمرو اثنى عشر ألف ألف دينار (١٢ مليونا) وصارت فى عهد ابن أبى السرح أربعة عشر ألف ألف دينار (١٤ مليونا) ، ثم صارت فى عهد معاوية خمسة آلاف ألف (٥ ملايين) ، بعد أن أسلم عدد عظيم من القبط ، وصارت فى خلافة الرشيد أربعة آلاف ألف (٤ ملايين) .

وهؤلاء دخلوا فى الإسلام بلا ضغط ولا إرهاب ، وكان القبط أحراراً فى عقيدتهم كما يقول مؤرخ منهم اسمه حنا النقيوسى (وهو لا يتورع عن أن يصف الإسلام بأبشع الأوصاف وبتهم من دخلوا فيه بأشد التهم[٣]) ، يقول عن عمرو : ولكنه لم يضع يده على شىء من ملك الكنائس ولم يرتكب شيئاً من الغصب أو النهب .

وخلاصة ما تقدم أن كثيراً من الروم والقبط أسلموا منذ أول الفتح راغبين ، وأن عددهم كان يزداد شيئاً فشيئاً ، وأن إيمانهم بالإسلام كان عظيما ، وأنهم ربحوا كثيراً من وراء اعتناق الإسلام .

ويترتب على ذلك انتشار اللغة العربية بينهم ، لأنها كانت ضرورة لازمة لفهم

---

(١) خطط المقريزي ج ١ ص ٧٨

(٢) فتح العرب لمصر ص ٤٠٣

(٣) ص ٣٨٦ المصدر نفسه .

الدين ؛ ومن الأئمة من يجعلها فرضاً فى بعض العبادات مثل الخطابة والصلاة . وإذا كان هؤلاء المسلمون كما وصفهم « بَسْتل » ، من رغبة فى الإسلام وحب له ، فنتيجة ذلك أن يعكفوا على دراسته ، ووسيلتهم الأولى هى تعلم لغته ، يتعلمونها للتفاهم مع إخوانهم المسلمين ، ويتعلمونها ، ويتعلمها غيرهم من القبط لأنها لغة الفاتحين السادة ، والضرورة تدعو إلى التفاهم معهم .

أما الأمر الثانى المهم فى انتشار اللغة العربية بمصر فقد كان نزوح العرب بعد الإسلام من جزيرتهم أفراداً وجماعات إلى هذه البلاد وإقامتهم فيها ، ومخالطتهم لسكانها ، وانتشارهم فى البلاد من أقصاها إلى أقصاها[1] . وخلاصة القول فى هذه الهجرات :

١ — أنها ابتدأت منذ الفتح العربى واستمرت بعده قرونا :

جاء فى الولاة والقضاة أن عمرو بن العاص قدم مصر بثلاثة آلاف وخمسمائة ، ثلثهم من « غافق[2] » . وأكثر من ثلث الجند كانوا من « عك[3] » .

ثم نزلت همدان بالجيزة وكتب عمرو فى شأنهم إلى الخليفة ، فرد عليه أن يجمعهم معه ، فإذا أبوا بنى عليهم حصناً ، ففعل ؛ وسكن الجيزة مع همدان نافع وذو أصبح وغيرهم ، وبرزوا إلى أرض الحرث والزرع[4] . وفى هجرة بَلِىّ يقول المقريزى :

---

(١) تشير إلى ذلك كتب الخطط مثل خطط المقريزى فى « ذكر نزول العرب مصر واتخاذهم الزرع معاشا وما كان فى نزولهم من الأحداث جـ ١ ص ١٢٨ » ومثل كتابه « البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب » وفى « صبح الأعشى » جزء ٣ ص ٣٣١ بيان عن هذه الهجرات من جزيرة العرب واستقرار أهلها فى نواحى مصر كما تجد فى كتاب « الولاه والقضاة » للكندى وغيره حديثا عن هذه القبائل غير مقصود لذاته ، يذكر فيه منازلها فى مصر أو مواطنها الأولى فى جزيرة العرب ، أو ظروف هجرتها ، أو تنقلها من مكان إلى مكان فى البلاد وهكذا .

(٢) ص ٨ (٣) فتح العرب ص ١٧٦

(٤) حسن المحاضرة جـ ١ ص ٥٩ وخطط المقريزى — القسطاط

« وبلى قبيل عظيم فيه بطون كثيرة . وكانت بلى بالشام ، فنادى رجل من بلى بالشام بالقضاعة ، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه فكتب إلى عامل الشام أن يُسَيِّر ثلث قضاعة إلى مصر ، فنظروا فإذا « بلى » ثلث قضاعة ، فسيروا إلى مصر[1] ويقول : « وجذام من قدماء عربان مصر قدموا مع عمرو بن العاص[2] » .

ولما عرض المقريزى لقيس قال[3] : وبنو سليم من قيس . وكان نزول سليم وعدة قبائل من قيس فى أرض مصر سنة تسع ومائة ، وأمير مصر إذ ذاك الوليد ابن رفاعه بن خالد بن ثابت الفهمى ، ولم يكن بأرض مصر أحد من قيس قبل ذلك إلا من كان من فَهْم وعَدْوان ، فإنهما من قيس فى جديلة .

وعن الهيثم بن عدى قال حدثنى غير واحد أن عبيد الله بن الحبحاب لما ولاه هشام مصر قال :ما أرى لقيس حظا فيها إلا لناس من جديلة — وهم فهم وعدوان — فكتب إلى هشام : إن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه قد شرف هذا الحى من قيس ونَعَشهم ورفع من ذكرهم ، وإنى قدمت مصر ، فلم أر لهم فيها حظا إلا أبياتا من فهم ، وفيها كور ليس فيها أحد ، وليس يضر بأهلها نزولهم معهم ، ولا يكسر ذلك خراجا ؛ وهى بلبيس ، فإن رأى أمير المؤمنين أن ينزلها هذا الحى من قيس فليفعل . فكتب إليه هشام : يترك الأمر إليه ، فبعث إلى البادية ، فقدم عليه مائة أهل بيت من بنى نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن ، ومائة أهل بيت من بنى عامر بن صعصعة ، ومائة أهل بيت من هوازن ... فأنزلهم بلبيس ، وأمرهم بالزرع ، ونظر إلى الصدقة من العشور فصرفها إليهم ، فاشتروا إبلا ، فكانوا يحملون الطعام إلى القُلْزم ، فكان الرجل يصيب فى الشهر العشرة دنانير وأكثر ، ثم أمرهم باشتراء

---

(١) ص ٣٧ (٢) ص ٣٣ البيان والإعراب .

(٣) ص ٦٤ البيان والإعراب .

الخيول ، فجعل الذى يشترى المهر لا يمسك إلا شهراً حتى يُركبَ ، وليس عليهم مئونة فى أعلاف إبلهم ولاخيلهم لجودة مراعيهم .

فلما بلغ ذلك عامة قومهم تحمل إليهم خمسمائة أهل بيت من البادية فكانوا على مثل ذلك . فأقاموا سنة فأتاهم نحو ألف وخمسمائة أهل بيت من قيس ، حتى إذا كان زمن مروان بن محمد ، وولى الحوثرة بن سهيل الباهلى مصر ، مالت إليه قيس ، فمات مروان وبها ثلاثة آلاف أهل بيت ، ثم توالدوا . وقدم عليهم من البادية من قدم ، فأحصوا فى ولاية محمد بن سعيد ، فوجدوا خمسة آلاف ومائتين ، ما بين صغير وكبير .

وبعين زمن قدوم أولاء الكنز فيقول[1] أصلهم من ربيعة وكانوا ينزلون اليمامة وقدموا أرض مصر فى خلافة المتوكل على الله أعوام بضع وأربعين ومائتين فى عدد كثير ، وانتشروا فى النواحى ، ونزل طائفة منهم بأعالى الصعيد ، وسكنوا بيوت الشعر فى براريها الجنوبية وأوديتها . وكانت « البجّة » تشن الغارات على القرى الشرقية فى كل وقت حتى أخربوها ، فقامت ربيعة فى منعهم من ذلك حتى كفوهم ، ثم تزوجوا منهم واستولوا على معدن الذهب العلاق ، فكثرت أموالهم واتسعت أحوالهم ، وصارت لهم مرافق ببلاد « البجة » واختطوا قرية تعرف بالنماس ، وحفروا بها آباراً .

وسَنْبَس من طي ، نزلوا بالبلاد سنة ٤٤٢هـ ، وثعلبة وطائفة من جَرْم جاءوا إلى هذه البلاد زمن صلاح الدين . وعدة القبائل التى كانت بمصر عند مجئ الغُزّ مع أسد الدين شيركوه كثير[2] .

٢ — ونزح المهاجرون من أماكن متفرقة فى بلاد العرب . فقيس وبَلِىّ من الشام ، ورهط كلب بن عدى من الحجاز ، وقريش من الحجاز من مكة ، والأنصار

---

(١) البيان والإعراب ص ٤٨

(٢) ص ٣٣

من المدينة ، ولخم وجذام وبنو هلال بن عامر وجهينة من اليمن[١] ، وأولاد الكنز أصلهم من اليمامة[٢] وهكذا .

٣ — أما منازلهم بأرض مصر فهى كثيرة كذلك ، وتكاد تشمل البلاد كلها من أسوان إلى البحر الأبيض ، مثل سنبس الذين نزلوا بالبحيرة فى ديار بنى قرة[٣] ، والعمريين الذين نزلوا البرلس[٤] ، وجذام الذين سكنوا بالحوف[٥] ، وسعود جذام الخمسة الذين نزلوا من منية غمر إلى زفيتا[٦] .

ونزل ببلاد الصعيد عدة قبائل من العرب : ففى بلاد أسوان وما تحتها بنو هلال ، وفى بلاد إخميم وما تحتها بلى ، وفى بلاد منفلوط وأسيوط جهينة ، وفي بلاد الأشمونين قريش . وكانت دور بنى سهم حول جامع عمرو بن العاص من الفسطاط إلى أن دثرت[٧] . وكانت عيذاب لبنى يونس من ربيعة ، ملكوها عند قدومهم من اليمامة ، فجرى بينهم وبين بنى بشر حروب انهزموا فيها ، ومضوا من عيذاب إلى الحجاز[٨] . ثم وقعت حروب بين بنى بشر قتل فيها اسحق بن بشر . فأحضروا إليها من بلبيس الشيخ أبا عبد الله محمد بن على[٩] فنزل إلى أسوان وأنشأ مكانه المعروف بساقية شعبان .

وكانت للعرب عدة إقطاعات منها هربيط وتل بسطه وغير ذلك . وكان اقطاع ثعلبة جميعه فى مناشير جذام . وإنما السلطان صلاح الدين وسع لثعلبة فى بلاد جذام .

ونزل بالصعيد طائفة من الأنصار منهم بنو محمد وبنو عكرمة وديارهم بحرى منفلوط .

---

(١) البيان والإعراب ص ٣٨ (٢) ص ٤٨ (٣) ص ٢٥
(٤) ص ٢٦ (٥) ص ٢٩ (٦) ص ٣٢
(٧) ص ٤٨ (٨) ص ٤٩ (٩) ص ٤٩

٤ — وبعضهم نزل فى أكثر من جهة من مصر ، وقد تشمل القرية الواحدة عدداً من البطون : فجذام نزلت فى أماكن متفرقة وامتزج من كان منهم مصر بولد زيد ، وهم بحرى الحوف إلى ما يلى أشموم ، وكانت قرارة بنى سعد تل طنبول إلى نوب طريف ، ومنهم بدقدوس ودمريط ، وضواحى القاهرة إلى أطراف الشرقية ، وبالإسكندرية جماعة من لخم وجذام[١] .

وكان بنو هلال أهل بلاد الصعيد إلى عيذاب . وبأخميم منهم بنو قُرَّة ، وبساقية قلته بنو عمرو . وبأصفون وإسنا بنو عقبة وبنو جميلة ، ومن بنى غافق بطن يعرفون بالقرافة ، سكنوا سفح المقطم ثم تركوا أماكنهم . وتفرقوا فى البلاد المصرية ، وصار مكانهم مقبرة للمسلمين فسميت المقبرة فى مصر بالقرافة ، نسبة إليهم[٢] .

وجهينة نزلت فى أماكن متفرقة[٣] وقريش كذلك .

وبنو الليث من كنانة سكان ساقية قلته وباقيهم فيما يليها[٤] . وعوف بن سليم فى بلاد الصعيد ، وفى الفيوم والبحيرة[٥] . وفزارة قيس منها جماعة بالصعيد وجماعة بضواحى القاهرة فى قليوب وما حولها[٦] ، ولخم نزلت أماكن متعددة[٧] وفى الدقهلية والمرتاحية عرب كثيرون وبنو سهم منهم أشتات بالصعيد[٨] .

٥ — بل إن بعضهم كان يلحق بالقبائل لقلة عدده ثم تأتي ظروف فيستقلون ؛ يقول الكندى[٩] :

ولما رأى بشر بن صفوان افتراق قضاعة كتب إلى يزيد بن عبد الملك يسأله الإذن له فى استخراج من كان منهم فى القبائل فيجعلهم دعوة منفردة ، فأذن له

---

(١) ص ٣٥
(٢) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣٣٨ الأدب المصدر الإسلامى ص ١٨
(٣) ص ٣٨ (٤) ص ١٠ (٥) ص ٥٢
(٦) ص ٥٣ (٧) ص ٦١ — ٦١ (٨) ص ٤٧
(٩) ص ٧١ الكندى

يزيد بن عبد الملك بذلك ، فأخرج مهرة من كندة ، وأخرج تنوخا من الأزد ، وأخرج آل كعب بن عدى التنوخى من قريش ، وأخرج جهينة من أهل الراية ، وأخرج خشينا من لخم فجعلهم مع سائر قضاعة دعوة منفردة[١] .

وتدوين بشر هذا هو التدوين الرابع ، لأن الأول تدوين عمرو بن العاص ، والثانى تدوين عمرو بن عبد العزيز ، والثالث تدوين قرة بن شريك ، والرابع هو هذا ، ولم يكن بعد هذا فى الديوان شىء له ذكر إلا ما كان من إلحاق قيس فيه زمن هشام . وأشياء أحدثها المسودة من أرباعهم التى أحدثوها منه[٢] .

٦ — وأما أعمالهم فى مصر فكانت متعددة ، وأول عملهم كان الحرب والمرابطة ، ثم تملكوا وزرعوا ، أو اشتغلوا بغير ذلك .

كأولاد الزبير — رضى الله عنه — صاراً كثرهم صاحب معايش وأهل زرع وفلاحة وماشية وضرع[٣] .

٧ — وكانت هناك هجرة من الغرب أيضاً من لواتة ، ومن أشهر قبائلها هوارة ، وقد نزلت منازل متفرقة ، فنزل بعضهم بالبحيرة ، ونزل بالصعيد جماعة ، أنزلهم الظاهر سنة ٧٨٢ هـ وذلك أنه أقطع إسماعيل بن مازن ناحية جرجا وكانت خرابا فعمرها وأقام بها[٤] . وفى المنوفية من لواته وأحلافهم كثير .

كثرة العرب بمصر :

ومما يدل على كثرة العرب بمصر أن أعدادهم كانت كبيرة فى الحوادث والحروب ، فقدجاء عمرو إلى مصر ففتحها بأربعة آلاف ، واستمد أمير المؤمنين عمر

---

(١) ص ١٠٢ الكندى
(٢) ص ٧١ الكندى
(٣) ص ٤٧
(٤) ص ٦٠

فأمده بالزبير بن العوام على اثنى عشر ألفاً[١] وتتابعت الجنود بعد ذلك كلما احتاج إليهم ، وكانوا مرابطين حتى مات عمر رضى الله عنه ، وكان من سياسة عثمان ألا يمنع الناس من تملك الأراضى فاستقر قوم من العرب فى مصر ، ولكنهم كانوا بالفسطاط وما حولها والإسكندرية وما يتلوها[٢] ثم كثرت العرب حتى أن عتبة عقد لعلقمة بن يزيد العطيفى على الإسكندرية[٣] فى اثنى ألفاً من أهل الديوان يكونون بها رابطة ، فكتب علقمة « يشكى » قلة من معه من الجند وأنه يتخوف على نفسه وعليهم[٤] .

وبلغ من قوتهم أن انتصروا على الروم فى ذات الصوارى وهى أول حرب بحرية لهم ، ثم غزوا بعد ذلك فى البحر فغزا عقبة بن نافع رودس[٥] فكم كان عدد جند المسلمين فى تلك الغزوات ؟ .

ومن قصيدة عبد الرحمن بن الحكم التى قالها فى فتح مروان لمصر ترى أن كثيراً من القبائل كانت بمصر مع عدوه بن حَجْدم والى مصر لابن الزبير وقد قتل يومئذ خلق كثير من الجانبين ، يقول عبد الرحمن :

وجاشت لنا الأرض من نحوهم ... بحيَّىْ تُجيبَ ومن غافِقِ
وأحياءِ مَذحِجَ والأشعرين ... وحِمْـيَرَ كاللهب المحرق
وسدت مَعَافِرُ أفق البلاد ... بمرعـد جيش لها مُبرق[٦]

وفى قتل الأكدر بن حمام على يد مروان يقول الكندى[٧] : « وتنادي الجند قتل الأكدر ! فلم يبق أحد حتى لبس سلاحه ، فحضر باب مروان منهم .

---

(١) ص ٩٠٨ الكندى عن ابن وهب عن لهيعة عن يزيد ابن أبى حبيب أن عمرو ابن العاص قد بثلاثة آلاف وخمسمائه ثلثهم من غانق ، ثم مد بالزبير بن العوام فى اثنى عشر ألف .
(٢) البيان للمقريزى ص ٤٧ (٣) الكندى ص ٣٦
(٤) خطط المقريزى ج ٢ ص ٨٧ (٥) ص ٣٨ الكندى .
(٦) الولاة والقضاة . (٧) ص ٤٦ .

زيادة على ثلاثين ألفاً » وكان الأكدر سيد لخم وشيخها ، فإن كان هذا العدد من أنصاره فهو كثير ، وإن كان من لخم وحدها فهو دليل أقوى على كثرة العرب بمصر ونحن ما زلنا فى سنة ٦٥ هـ . ثم إن امرأته كانت معه فهذا دليل الإقامة والاستقرار .

وعبد العزيز بن مروان ينشئ مدينة أخرى غير الفسطاط هى « حلوان » ويحيطها بأبهة الأمارة ، وينزل بها معه كثير من الناس[١] .

وأدل من ذلك على كثرة القبائل بمصر ما يرويه الكندى[٢] عن كرم عبد العزيز بن مروان قال : وكان لعبد العزيز ألف جفنة كل يوم تنصب حول داره ، وكانت له مائة جفنة يطاف بها على القبائل ، تحمل على العجل إلى قبائل مصر

وقد استأذن الحر بن يوسف من هشام فى أن يبنى الناس فى أرض انكشف عنها النيل ليست لمسلم ولا لمعاهد ، وهم مضطرون إليها ، فأذن له فى بناء قيسارية هشام ، فابتدأ فيها فى رجب سنة ١٠٧ هـ ، وهذا أيضاً دليل الاستقرار والعمل عليه وضيق البلاد بالناس .

وقد انتجع العرب ريف مصر من أول الفتح[٣] فكان إذا جاء الربيع تفرق العرب فى البلدان فيذهب آل عمرو بن العاص وآل عبد الله بن سعد إلى منوف ووسيم ، وكانت هذيل تذهب إلى ببا وبوصير ، وتذهب عدوان إلى بوصير . وكانت فهم تذهب إلى « إتريب » وعين شمس ومنوف الخ وفى عهد العباسيين فى سنة ١٦٧ خرج من الحوف قيس واليمن على موسى بن مصعب[٤] ، ونسمع بقيس فى ثورات كثيرة بالحوف منها ثورتهم التى أدت إلى مقتل عمير بن الوليد سنة ٢١٤ هـ[٥] .

---

(١) ص ٤٩ .
(٢) ص ٥١ .
(٣) خطط المقريزى ج ٢ ص ٢٦٠ .
(٤) ص ١٢٥ الكندى .
(٥) ص ١٨٦ الكندى .

ونسمع بلخم فى ثورة الجروى حوالى سنة ٢٠٠ ، وفى ثورة الصوفية والأندلسيين بالإسكندرية فقد عاضدوا هذين فى ثورتهما على عمر بن هلال[١] ، ثم فسد أمر لخم والأندلسيين ووقعت بينهم حرب انهزمت فيها لخم[٢] .

ونسمع بمُدلج تحارب الأندلسيين[٣] ويُغلَبون وينفيهم الأندلسيون من الإسكندرية ونسمع بهم يمدون القبط بسخا فى خروجهم على الجروى سنة ٢٠٢ وفى ثورة على الأفشين سنة ٢١١[٤] .

ونسمع فى هذا التاريخ الطويل بحروب وانتقالات جيوش ، وثورات من أهل البلاد فى أنحاء مختلفة . ويذهب الجند لإخمادها ويقيمون بين الناس لحفظ الأمن ، وقد يتصلون بهم فى البيع والشراء ويشاركونهم فى الدور والغلات ويجمعون منهم الخراج والجزية ، ويقضون بينهم بالعدل فى الخصومات ، ويحدثونهم بلسان عربى ، ويخاطبهم هؤلاء بهذا اللسان ، لأنه لسان الدين ، ولسان الحاكمين .

ومما شجع العرب على الاستيطان أو دفعهم إليه دفعاً أن المعتصم قطع أعطياتهم وأسقطهم من الديوان وأرسل بذلك إلى كيدُر[٥] واليه على مصر فثار عليه يحيى بن الوزير الجروى فى جمع من لخم وجُذام ، وقال : هذا أمر لا نقوم فى أفضل منه لأنه منعنا حقنا وفيئنا ، فهزمهم مظفر بن كيدُر فى تنيس سنة ٢١٩ هـ[٦] .

ونحسن باشتراك المصالح بين القبط والمسلمين ونُصرة بعضهم لبعض ، فقد نصرت مدلج القبط فى ثورة سخا سنة ٢٠٢ هـ ، ولما ثار المصريون على المأمون سنة ٢١٦ هـ كان القبط والمسلمون جنباً إلى جنب[٧] .

أثر هذه الهجرات فى اللغة

وكان من هذه الهجرات ، والتنقل بين الريف والحضر ، وفى السلم والحرب

---

(١) ص ١٦٢ الكندى . (٢) ص ١٦٣ (٣) ص ١٦٤
(٤) ص ١٩١ (٥) ص ١٩٣ (٦) ص ١٩٤ (٧) ص ١٩٠

واختلاط القبائل المختلفة اللهجات بعضها ببعض ، وبأهل البلاد مسلمين وغير مسلمين :

١ — أن صارت العربية لغة البلاد فى حديثها وأدبها وعلمها ؛ وإذا كانت القبطية ظلت أزماناً تستعمل فى بعض الجهات لغة حديث وكتابة وعبادة ، فإن مغالبة العربية لها ، واستعانةهذه بكثرة المهاجرين ، وكثرة من أسلم من أهل البلاد أضعفتها شيئاً فشيئاً حتى خلا الميدان للغة القرآن الكريم . وكانت مزاحمة العربية مبكرة ، فإن ساويرس ابن المقفع كتب كتابه « عن تاريخ حياة البطارقة » حوالى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، وقال فى مقدمته التى كتبها بنفسه إنه كان يلجأ إلى بعض القبط ليترجموا له الوثائق اليونانية والقبطية إلى العربية ؛ إذ أن اللغتين المذكورتين كانتا ، حتى عند ذلك الوقت ، غير معروفتين لأكثر المسيحيين ، ومنه يظهر مدى الاضمحلال الذى أصاب اللغتين[1] .

والحق أن اليونانية التى كانت لغة علم ودولة ، قد ضعفت بدخول الإسلام مصر ، وإن ظلت مستعملة قليلا فى بعض المدارس بالإسكندرية وفى بعض الأديرة الملكانية .

وأما السريانية فكانت لغة العلم وبخاصة الطب ، وظلت مستعملة حتى جاء عهد العباسيين ، فارتحلت إلى مدارس شمال العراق والشام وفارس وأودعت العربية ذخائرها الأصلية والمنقولة ، وبخاصة ما كان عن اليونانية .

٢ — وحلت بالبلاد لهجات عربية متعددة مع هؤلاء النازحين تشبه لهجاتهم فى موطنهم الأول ، وتأثرت فى وطنها الجديد بما جاورها من اللهجات العربية ، وباللغة المحلية التى كانت قبلها فى ذلك الوطن . أما مدى تأثرها فيختلف على قدر الاختلاط بغيرها ، وكثرة من يجاورها .

---

(١) فتح العرب لمصر ص ٢٩ — ٣٠

٣ — ولم تتأخر العربية عن استخدام بعض الألفاظ والكلمات المحلية أو اليونانية إذا دعت إليها حاجة ، ولا عن الإكثار من كلمات عربية يكثر مدلولها فى مصر مما يتصل بالنيل والخصب والزراعة والحصاد والفيضان والمقاييس والخلجان والترع وغير ذلك .

ثم هؤلاء القوم الذين ورثوا البلاد من بعد أهلها ، وبدلوا دينها ولغتها ، وصاروا أصحاب تاريخها وحضارتها قد مهدوا للأدب العربى سبيلا إليها ، حتى صار الأدب الوحيد فيها بعد حين . وقد تنوعت فنونه ، وتعددت رجاله ، وكثرت الرحلة به ، وعظم الجزاء عليه ، وهذا حديثنا عنه فى الفصول التالية .